

- ٣١٠٢ -

الآخرين بمحنة مشابهة ، وعلم فيما بعد من مصادر موثوقة ان الكونت كان اسيرا في حلب (٤٩) .

وتركت زوجته التي كانت امرأة محتشمة ورزينة تخشى الرب وتلقى التأييد منه ، مع ابن قاصر وابنتين ، وحاولت بمساعدة الرجال الرئيسيين الذين كانوا مايزالون في المملكة ، ان تحكم الناس بأفضل ما تستطيع ، وشغلت نفسها ويشكل يفوق كثيرا قوة المرأة في تعزيز القلاع في المنطقة وتزويدها بالاسلح والرجال والمواد الغذائية.

وهكذا ، حرم هذان البلدان - عقابا لاثامنا - من التوجيهات الحكيمة لامرائها ، وباتا يحاولان الصمود بصعوبة في ظل حكم الذسوة .

١٢ - الملك يعيد مع اعيان المملكة بناء غزة على مقربة من عسقلان .

بعد وقت قصير من وقوع هذه الاحداث في منطقة انطاكية زارت الرحمة السماوية المملكة ، وتشجع الملك ونبلاؤه مجددا بعدما خرجوا من اعماق الكأبة التي كانوا قد سقطوا فيها بسبب الكوارث المتكررة التي كانت قد اصابتهم وصمموا على اعادة بناء غزة ، واملوا بهذه الطريقة ان يضعوا حاجزا اكثر فعالية ضد اعدائهم المروعين من اهالي عسقلان ، ولنعمهم من القيام بغاراتهم المشؤومة .

كانت مدينة غزة القديمة جدا تقع على بعد عشرة اميال جنوب عسقلان ، وكانت مخربة الان ومهجورة تماما ، وصمموا على اعادة بناء هذه المدينة حتى يمكن تطويق عسقلان من ناحية الجنوب

مثلا كانت مطوقة من الشمال والشرق بالقلع التي كانوا قد بنوها هناك ، ويمكن من هذا الاتجاه شن هجمات متوالية ضد المدينة ومواصلة حرب هجومية بلا انقطاع ، وهكذا ، اجتمع الناس جميعهم في اليوم المحدد كرجل واحد ، وبدأوا العمل بجهود صلبة ، وتنافس كل منهم مع جاره في المساعدة على اعادة اعمار المدينة . كانت مدينة غزة هذه نفسها ، المدينة القديمة جدا ، احدى مدن الفلسطينيين الخمس ، وقد اشتهرت بابنيقتها وبكنائس انيقة كثيرة ، وبمنازل فسيحة مصنوعة من الرخام واحجار ضخمة ، فعلى الرغم من انها مخربة الان فانها لاتزال تقدم دليلا على مجدها القديم ؛ كما لاتزال هناك خزانات كثيرة وابار فيها ماء مناسب للحياة . فقد بنيت على ربوة غير عالية وضمت بين اسوارها منطقة واسعة جدا .

ادرك المسيحيون انه لن يكون موائما اعادة بناء المدينة بأسرها وان قوتهم ايضا قد لاتكون كافية لمهمة كهذه في ذلك الوقت ، ولذلك اخذوا جزءا من الهضبة ووضعوا اساسات ذات عمق مناسب وشيدوا قلعة مشهورة لسورها ولابراجها . وانتهى العمل بنجاح في غضون وقت قصير بمساعدة الرب ، وعندما انتهت القلعة بكل اجزائها تماما عهد بها بموافقة عامة لرعاية فرسان الهيكل ليحتفظوا بها الى الابد مع سائر المنطقة المتاخمة ، وصان الداوية الذين كانوا رجالا شجعانا ومحاربين اشداء ، هذه الامانة باخلاص وحكمة حتى الوقت الحالي ، فقد هاجموا مرارا وتكرارا مدينة عسقلان احيانا بشكل علني و احيانا اخرى بشن هجمات من الكمائن ، وبالنتيجة فان هؤلاء الاعداء الذين اجتاحوا المنطقة وخربوها بأسرها من قبل وجعلوا المسيحيين يخافونهم ، يعدون انفسهم الان محظوظين للغاية اذا ماتمكنوا بالتوسلات او المال من الحصول على سلام مؤقت ، واذن بالعيش بهدوء داخل اسوارهم .

برهنت غزة انها ليست فقط مفيدة في قمع عسقلان – التي شيدت

لازعاجها - بل حتى بعد الاستيلاء على المدينة ، فقد قامت ايضا بدور الخط الدفاعي في الجنوب ، وقدمت حماية كبيرة لتلك المنطقة ضد المصريين .

في مطلع الربيع عاد الملك والبطريك الى القدس وذلك عندما انتهى بناء داخل القلعة بشكل جزئي (٥٠) ، وتركوا في غزة فرسان المعبد الذين وضعت القلعة تحت مسؤوليتهم ، وكان المصريون في هذه الاثناء معتادين على ارسال قوات اضافية ثلاث مرات او اربع في العام لتعزيز قوة اهالي مدينة عسقلان (٥١) ، وحدث بعد رحيل الملك ان ظهرت هذه القوات بأعداد ضخمة امام حصن غزة وشنت هجوما عنيفا على المدينة حيث كان سكان المدينة قد هربوا اليها بسبب خوفهم من العدو ، الا ان القادة المسؤولين اتركوا بعد اضاءة عدة ايام في الحصار ان الجهود التي كانوا يبذلونها كانت جهودا عقيمة فرحلوا الى عسقلان ، وضعفت قوة العدو بشكل واضح من ذلك اليوم وتناقصت قدرته على ايدائنا حتى توقف بالتدريج عن مضايقة المناطق الواقعة حوله .

بدأ الجيش المصري ، الذي اعتاد كما ذكرنا من قبل على جلب المساعدة مرارا ، بالقدوم عن طريق البحر فقط ، لانه خشى من الكمائن المنصوبة من قبل القلعة القائمة على الطريق واصابه زعر شديد من الفرسان .

١٣ - نشوب نزاع خطير بين الملك ووالدته وتتويجه بدون علمها .

في هذه الاونة كانت امور المملكة في الشرق تتقدم بشكل سار وسانت حالة لا بأس بها من الهدوء ، الا ان هذه الحالة فسدت الى حد ما بسبب انتقال الرها الى سلطة اعدائنا ، وبذلك خسرتها

وبسبب ان منطقة انطاكية كانت خاضعة لهجمات معادية باستمرار ، وبدأ الشيطان عدو الانسان والمستعد لنشر بنور الخلاف ، ينظر بحسد الى ازدهارنا ، وحاول تعطيل سلامنا باثارة الخلافات المدنية ، وكان اصل المشكلة وسببها كالتالي : كما ذكرت من قبل ، تركت الملكة ميليساند ، ذات الذكرى الرائعة والورعة في الرب ، عند وفاة زوجها ولها ولدان لم يبلغا سن الرشد ، ونظرا لعملها كوصية شرعية لهما ، فقد تولت بموجب حق الوراثة الاهتمام بالملكة وادارتها ، وتمكنت بمساعدة نبلاء المملكة ومشورتهم من الحكم بقوة واخلاص وبشكل يفوق قوة وشجاعة النسوة وظلت كذلك حتى ذلك الوقت ، وعاش ابنها الاكبر بلدوين ، الذي نكتب الان عن اعماله ، بانسجام تام معها واطاع اوامرها بحكمة حتى بعد ارتقائه للعرش .

وكان من بين الذين اعتمدت الملكة على مساعدتهم ومشورتهم قريباها ماناسيس ، وكان رجلا من منزلة عالية وصديقا حميما لها ، وعينته حالما تولت الحكم حاكما للقلعة وعينته في القيادة العليا للجيش ، ويقال انه انتهز عطف الملكة وتصرف بشكل متعجرف جدا ، واتخذ موقف استعلاء وقح تجاه زعماء المملكة ، ورفض ان يظهر لهم احتراما مناسبا ، واثار سلوكه هذا كراهية شديدة ضده من جانب النبلاء ، ولو لم تكن الملكة قد مارست سلطتها لكانوا قد حولوا حقدهم الى فعل ، وكان ماناسيس قد تزوج من ارملة بالين الاكبر ، وهي عقيلة نبيلة والدة الاخوة الثلاثة هيو وبلدوين وبالين صاحب الرملة ، وكان قد كسب بهذا الزواج ثروة كبيرة ووسع ممتلكاته كثيرا ، وكان الملك قبل الجميع على رأس الذين يكرهون ماناسيس بالمشاعر والاعمال ، وادعى ان الرجل كان يصرف ود والدته عنه ويعارض سخاءها .

كان هناك كثيرون يكرهون سلطة هذا الرجل وسيطرته الشيطانية ، واثاروا باستمرار كراهية الملك نحوه ، وطالبوه

باستمرار باقصاء والدته عن السيطرة على المملكة ، وبما انه كان قد بلغ سن الرشد ، فقد قالوا انه ليس من اللائق ان تتحكم به ارادة امرأة ، وينبغي عليه ان يتولى القيام بنفسه ببعض مسؤولية حكم المملكة (٥٢) .

وتأثر الملك بأراء اخرين مثلهم ، وصمم على تتويج نفسه في القدس في عيد الفصح ، وتوسل اليه البطريرك والرجال الحكماء الاخرون الذين رغبوا ان يحل السلام بالمملكة ، بجدية ان يسمح لوالدته بالمشاركة في مجده ، لكنه بدل استجابة لنصيحة المستشارين المذكورين قبل لحظات من الموعد ، الموعد الذي كان قد حدد للاحتفال حتى معه ، ثم ظهر فجأة في اليوم التالي وهو متوج باكليل الغارون ان يستدعي والدته .

١٤ - تقسيم المملكة بين الام والابن . الملك يدخل القدس بالقوة . ارغام والدته على الاعتصام في برج داود . استعادة الهدوء والسلام اخيرا .

عقد الملك بعد ان انتهى الاحتفال المهيب اجتماعا لنبلائه حضره الكونت ايفزاوف سواسونز وولتر أمز قلعة القديس اومر ، وذهب بلويون الى والدته وطالبها باقتسام المملكة معه ، على الفور وان تخصص له جزءا من ميراث اسلافه ، وبعد جدال طويل من كلا الجانبين قسم اخيرا الميراث ومنح الملك حق الاختيار فأخذ حصة له المدن البحرية الواقعة في منطقتي صور وعكا مع توابعهما ، وتركت القدس ونابلس مع المدن التابعة لهما للملكة ، وهكذا انفصلا عن بعضهما وامل الناس ان يستمر الاتفاق المتفق عليه من اجل السلام ، وان يرضى كل من الاثنيين بالنصيب الذي ال اليه ، وعين الملك في هذا الوقت كافلا لمملكته وقائدا للجيش نبيلاً بارزا اسمه همفري صاحب تيرون ، الذي كان صاحب ممتلكات واسعة وكبيرة في فينيقية بين الجبال بالقرب من مدينة صور .

لكن الرغبة بمضايقة الملكة لم تهدأ حتى بهذه الطريقة ، بل على العكس ، فقد اثير ثانيا الغضب الذي كان مايزال مضطربا بسبب نرائع تافهة ، وتأجج متحولا الى حريق هائل اكثر خطرا من ذي قبل . فقد بدأ الملك يسبب المتاعب لوالدته بسبب تحريض النبلاء انفسهم الذين استمع لارائهم من قبل ، وعزم على الاستيلاء على تلك الجزء من الملكة الذي كانت تستلمه برضا الاثنيين وان يقصياها بعد ذلك تماما ، وعندما عرفت الملكة بخطته عهدت بالرعاية بنبابلس الى احد نبلائها المخلصين واسرعت الى القدس .

جمع الملك في غضون ذلك قوة كبيرة جدا بقدر ما اسعفه الحظ وحاصر ماناسيس في احدى قلاع المسماة باسم مجدل يابا ؛ فاضطر ماناسيس الى الاستسلام واجبر على التخلي عن المملكة وسائر المنطقة الواقعة على هذا الجانب من بحر (فلسطين) ، ثم استولى الملك على نابلس وتقدم نحو القدس في مطاردة لوالدته .

وتنكر بعض النبلاء ، الذين كانت ممتلكاتهم تقع ضمن اقاليم الملكة والذين كانوا ملحقين بها بولاء اسمي فقط ، لايمان الولاء التي كانوا قد ابوها وارتدوا عنها ، وكان عدد الذين حافظوا على الوقوف الى جانبها والذين التزموا بقضيتها باخلاص تام قليلا ، وكان بين هؤلاء كل من ابنها عموري كونت يافا وهو شاب صغير جدا ، وفيليب صاحب نابلس وروهارد الاكبر مع عدد اخر قليل اسماؤهم غير معروفة .

عندما سمعت الملكة ان ابنها كان يزحف نحوها مع جيش ، انسحبت الى القلعة مع اركان اسرتها واتباعها المخلصين ووثقت بدفاعات القلعة ، الا ان البطريرك فولتشر ذا الذكرى الطيبة ، ادرك ان اوقات الخطر وايام الفزع باتت تحمل نذير الخوف ، وبما انه كان راغبا بالتدخل كمصلح لذات البين وكملمس لتقديم اقتراحات سليمة فقد اخذ معه رجالا متدينين يخافون الرب من بين رجال

الدين ، وخرج لاستقبال الملك ، ونصحه بالعدول عن مشروعه الشرير ، وان يلتزم بشروط الاتفاق ، وان يترك والديه تستريح بسلام ، بيد ان هذه التحذيرات كانت بلا محصلة فقد عاد الى المدينة بمقت تام لهدف الملك .

كان الملك مصمما على الوصول الى غايته وضرب معسكره امام المدينة ، واخيرا فتح له السكان الابواب وادخلوه مع جنده تجنبيا لغضبه ، فحاصر على الفور القلعة التي كانت والديه قد لجأت اليها ، ووضع الاته الحربية في مواقع لشن الهجوم ، وهاجم القلعة بطريقة عدائية مستخدما الات المنجنيق والاقواس والات القذف الحربية ، وكانت الهجمات مستمرة بلا انقطاع بحيث لم يتيسر للمحاصرين اية فرصة للراحة ، وقاموا من جانبهم بكل قوتهم وصمموا على صد القوة بالقوة ، ولم يترددوا باستخدام الاساليب ذاتها التي استخدمتها القوات المحاصرة المتمركزة خارج القلعة ، وعن الحاق الاضرار بأعدائهم ، وانزال تدمير مماثل بهم . واستمر الصراع لعدة ايام وبخطر كبير لكلا الطرفين ، لان الملك كان مايزال معارضا للانسحاب على الرغم من انه احرز تقدما بسيطا في الاستيلاء على القلعة ، وبعد لاي تقدم في اخر الامر بعض الافراد كوسطاء من اجل السلام والتفاهم ، وتم اقناع الملكة بالرضى بمدينة نابلس ومنطقتها ، وان تتخلى عن القدس عاصمة المملكة الى الملك ، وقدم الملك من جانبه ضمانا وادى يمينا جليلا بانه لن يضايقها في امتلاكها لتلك المدينة بشكل دائم ، وهكذا تصالحا مع بعضهما وعاد الهدوء من جديد الى الملكة والكنيسة كنجم الصباح الذي يشع وسط الظلام .

١٥ - سلطان قونيه يجتاح مجدداً منطقة الرها ،
الملك يخف الى هناك بكل سرعة .

نقل الى ملك القدس نبأ الكارثة المحزنة التي كانت قد ادت الى اسر

كونت الرها ، كما علم من مصادر موثوقة ان الرها ، التي تركت بلا مدافع عنها كانت معرضة لكائد العدو ، واستدعت سائر تلك المنطقة مع اراضي انطاكية التي كانت متروكة لحكم النساء اهتمام الملك واستجابة لهذا المطلب اخذ بلديين معه همفري كافل الملكة وغي صاحب بيروت وذهب الى منطقة طرابلس ولم يتمكن من الحصول على استجابة من الاقاليم التابعة للملكة على الرغم من انه استدعى نبلاءها كل منهم باسمه ، وانضم اليه في طرابلس كونت تلك المنطقة وفرسانه ، وتقدمت القوات بالسرعة الممكنة الى انطاكية .

وانيع في كل مكان ، وقد تأكد ذلك بالفعل ، ان اميرا تركيا قويا هو سلطان قونيه كان قد اجتاح بقوات ضخمة من الفرسان تلك البلاد واستولى على معظم اجزاء المنطقة المتاخمة لاقليمه ، وحيث لم يتمكن الاهلون من صد قوة جيشه ومقاومتها ، فقد سلموه جميع مدنهم وقلاعهم شرط ان يضمن لهم رحيلا امنا واطليقا مع زوجاتهم وابنائهم وتأمين طريق امن الى تل باشر ، وكان ذلك الموقع محصنا - بشكل افضل من باقي المواقع ، وكان فيه عدد كبير من السكان ، وكان للكونت مسكنه الدائم هناك وبدا - حتى الان - هادئا ، لكن عندما كان السلطان قد استولى على المنطقة بأسرها باستثناء عدد قليل من القلاع اضطر الى العودة الى بلاده للعناية بقضايا اكثر اهمية ، ومع ذلك لم تتناقص مشاق اهل المنطقة ولم يهدأ قلقهم ، لان نور الدين المضطهد الاكثر ازعاجا لشعبنا ، والذي كان اميرا تركيا قويا جدا ، كان يغزو المنطقة بأسرها ، وكانت هجماته مستمرة على الدوام بحيث لم يجرؤ احد على الظهور خارج القلاع ، وهكذا ، سحق ذلك الشعب البائس باستمرار ، وبات كأنه واقع بين حجري رحى ، فقد لاقى العذاب على ايدي اميرين عظيمين بشكل يفوق الاحتمال ، وذلك على الرغم من انه لم يكن قادرا على تحمل عنف واحد منهما .

١٦ - امبراطور القسطنطينية يرسل جيشا الى اراضي انطاكية. مطالبته بتسليم منطقة الرها اليه . حصوله على مطلبه . تسليم القلاع الى الاغريق . الملك يزحف باللاتين الى الامام (٥٣)

وعلم بالوقت نفسه امبراطور القسطنطينية بالوضع البائس في الرها فارسل واحدا من نبلائه الى هناك مع كميات كبيرة من المُن وقوة عظيمة من فرسانه ، وعرض منح الكونتس بخلا سنويا ثابتا ، وكافيا ليوفر لها ولاولادها اسباب عيش شريفة بشكل دائم ، اذا ماتسلم مقابل ذلك القلعة التي كانت ماتزال تملكها ، وكان واثقا بسبب ثرواته الضخمة انه اذا ماسلمت اليه فسيحافظ عليها سليمة من غزوات الاتراك ، ويعيد الى امبراطوريته بدون صعوبة الاجزاء التي كان قد فقدها .

وعندما وصل الملك الى انطاكية ، وكشف النقاب عن سبب قدوم المبعوثين الامبراطوريين بتوليهم انفسهم شرح المهمة المناطة بهم ، نشب خلاف بين نبلائها ، وقال بعضهم ان الامور لم تصل بعد الى درجة من الشدة تتطلب هذا التصرف ؛ وخلافا لذلك ، اكد اخرون انه يجب اتخاذ اجراء ناجح قبل وقوع المنطقة في قبضة العدو ، وراى الملك في غمرة هذه الشكوك ان المنطقة لن تتمكن من الاستمرار لفترة طويلة من الزمن في وضعها الحالي ، وان مسؤوليات مملكته لن تسمح به بالبقاء هناك لفترة طويلة جدا من الزمن ، كما لم يكن معه قوات كافية لتمكنه بشكل موثم من حكم اقليمين يبعدان عن بعضهما مسيرة خمسة عشر يوما ، وتوصل - بعد اخذه بعين الاعتبار حقيقة ان انطاكية الواقعة في منتصف المسافة بين الاقليمين وكانت لعدة سنوات بلا حماية امير لها - الى محصلة انه من الافضل التنازل للاغريق عن القلاع التي كانت ماتزال باقية وذلك وفقا للشروط المقترحة ، ولم يشعر الا بثقة قليلة حول امكانية

القوات الاغريقية بالمحافظة على الاقليم في وضع جيد ، الا انه فضل ان تباغتها كارثة بينما هي تحت سلطتهم على ان يوضع عليه مسؤولية سقوط شعب احواله خطرة وبلاده مدمرة مفزعة ، وبناء عليه تم التوصل - بموافقة من الكونتس ومن ابنائها - الى معاهدة مرضية للطرفين ومبينة على الشروط المذكورة انفا ، وحدد يوم ايضا يتوجب فيه على الملك النزول الى ذلك الاقليم مع جميع قواته ليسلم جميع القلاع ويمكن رجال الامبراطور من تملكها جميعا ، وزحف الملك الى بلاد كونت الرها اي تل باشر وذلك في الوقت المحدد حسب الاتفاق ، وكان بصحبته كونت طرابلس ونبلاء كل من المملكة وانطاكية ورافقه المنسوبون الاغريق ، ووضع هنالك تحت حمايته : الكونتس وابنائها والآخرين جميعا من كلا الجنسين سواء اكانوا لاتينيين أو أرمن ، من الذين كانوا راغبين بالرحيل وبتسليم المنطقة الى الاغريق . وكانت القلاع التي كانت ماتزال حتى هذا الوقت في حوزة المسيحيين هي تل باشر ، وعين تاب والراوندان والبيرة وسميساط وربما قلاع اخرى ، فقد تم التخلي عن جميع هذه القلاع ووضعها تحت سلطة الاغريق .

ثم استعد الملك للزحف ، وذهب معه جميع الناس الذين كانوا يرغبون بالرحيل مع حيوانات التحميل التي كانت عندهم وكمية كبيرة من الامتعة ، لان كل رجل صمم على ان يأخذ معه اسرته وبطائته وجميع حاجياته المنزلية وكذلك جميع مفروشاتة ، وهكذا ، اسرع الملك بالرحيل مع هذا الحشد الضخم من الناس غير المقاتلين وكميات الامتعة الضخمة حتى يتمكن من نقلهم الى مكان امن .

١٧ - نور الدين يصطدم بالملك على الطريق وينجح في وقف الهجرة . الملك يعود الى انطاكية مع شيء من الصعوبات . نور الدين يهاجم الاغريق ويستولي على كامل المنطقة .

علم نور الدين ان اهالي الرها اقدموا بعدما سيطر اليأس عليهم في قدرتهم على الاحتفاظ ببلادهم على التنازل عن قلاعهم الى الاغريق المخنثين الضعفاء وان الملك كان قد سار الى هناك ليتولى ترحيل الناس . وقد زاد من شجاعة نور الدين ابراهه للخوف الذي كان يشعر به المسيحيون ، فجمع على الفور قوات مسلحة من سائر المناطق المتاخمة ونزل فجأة الى تلك الاجزاء ، حيث امل ان يواجه الملك مع شعبه الذين كانوا قد ارتابوا كثيرا بقوتهم ولم يثقوا بها ، وقدر ان الامر سيكون لمصلحته كثيرا لو انه تمكن من مقابلتهم في ظروف كهذه حيث يعيقهم مقدار هائل من الامتعة ، وبناء عليه لم يكد الملك يصل مدينة بلوك التي لاتبعد اكثر من خمسة او ستة اميال عن تل باشر عندما انقض نور الدين بقواته على المنطقة بأسرها ، هذا وكان هناك قلعة قريبة تدعى قلعة عين تاب توجب على المسيحيين ان يواصلوا طريقهم الى مسافة ابعد منها ، وبإسراهم للخطر المحيق بهم ورغبة منهم في الاسراع ، عبأوا صفوفهم بتشكيل المعركة ونظموا قواتهم بترتيب جيدا ، توقعوا لصدام فوري ، كما انتظرت عساكر العدو اقترابنا بتلطف وهي بتشكيل المعركة وكأنها واثقة من النصر ، لكن الامور انتهت خلافا لتوقعهم حيث وصل جيشنا بسلام الى تلك القلعة بقيادة رحمة الرب ، وسمح هناك للرجال المرهقين والبهاائم بالاستراحة طوال تلك الليلة ، واجتمع في هذه الاثناء القادة في مؤتمر تدارسوا فيه الزحف لليوم التالي .

طالب بعض اعيان النبلاء بوضع القلعة تحت رعايتهم واعتقدوا ان قوتهم كانت كافية بعون الرب للاحتفاظ بالموقع ضد هجوم

الاتراك ، وكان من بين رجالات المملكة الذين ابدوا هذا الرأي همفري اوف تيرون كافل المملكة (٥٤) وكان رجلا صاحب شجاعة سامية ووافق على هذا الرأي روبرت دي سورد فال وهو نبيل قوي من نبلاء امارة انطاكية ، غير ان الملك كان مقتنعا انه لم يكن لدى اي من الاثنين قوة او قدرة كافية للمهمة ، ورفض بالتالي العرض الذي تقدما به وعده غير جدير بالدراسة ، واصر على المحافظة على المعاهدة ، وسلم الموقع الى الاغريق وامر الناس بالاستعداد لمواصلة الزحف .

وكان بين ذلك الحشد رجال من نوي اصل سام ، وسيدات نبيلات مع عذارى كريمات المحتد واطفال صغار ، وكانوا يغادرون ارضهم الاصلية ومنازل اجدادهم وارض ابائهم بالتعهدات والدموع ويتوجهون الى ارض الغرباء بحزن عميق ، ولاشك ان قلوب القساة كانت ستتأثر بتأوهات وصيحات وعويل هؤلاء الناس عندما خرجوا الى المنفى .

وعندما عاد النهار ثانية رتبت الامتعة واستؤنف المسير ، وانتظم العدو في خط الزحف ايضا وتقدم معهم على كلا الجانبين وكان مستعدا للانقضاض على الرتل من جميع الجهات ، وعندما رأى المسيحيون ذلك العدد الكبير من الجند في صفوف الزحف ، اعدوا ترتيب كتائبهم مع الفرسان الخمسمائة الذين كانوا معهم وعينوا اماكن نظامية للجميع وتوجب على الملك ان يسير الى الامام مع طليعة الجيش ويوجه تقدم حشود المشاة ، وجرى تعيين كونت طرابلس و همفري كافل المملكة لحماية الفرق الخلفية ، وتوجب عليهما ان يصداما مع القوات الاخرى القوية والكبيرة هجمات العدو وان يحموا الناس من اذاها ، وتم وضع نبلاء انطاكية على يمين ويسار الرتل ، حتى تكون قوة قادرة من الرجال الشجعان والفرسان المسلحين مع الحشد الذي تم وضعه في المراكز .

تقدم المسيحيون طوال ذلك اليوم بهذا الترتيب حتى الغروب .

وانهكتهم باستمرار كوارث لاتحتمل وهجمات متكررة واشتباكات من مواقع قريبة ، وانهم روابل من السهام على الجنود المتقدمين حتى غطيت الامتعة بالسهام وأصبحت كالفنذ ، كما أنهك الغبار والحرارة ، اللتان تسودان في شهر آب ، الناس بشكل يفوق الاحتمال ، وهاجمهم ، إضافة لذلك ، عطش شديد ، وأخيرا أعطى الأتراك عند غروب الشمس شارة الانسحاب حيث لم يكن لديهم أية مؤن غذائية ، إضافة لذلك كانوا قد فقدوا بعض نبلاتهم وتوقفوا الآن عن تتبع جيشنا بعدما استولى عليهم العجب تجاه صمود المسيحيين ومثابرتهم .

كان همفري كافل المملكة يطارد الكفرة المتقهقرين وهو مسلح بقوسه على مسافة بعيدة بعض الشيء من الجيش عندما اقترب منه أحد الجنود من صفوف العدو وألقى أسلحته ، ثم شبك يديه أولا على أحد الجوانب ثم على الجانب الثاني إشارة للتوقيير ، كان تابعا لنبييل تركي قوي جدا وكان موثوقا من قبله ، وكان هذا التركي مرتبطا مع الكافل في اتحاد أخوي حميم جدا ، وكان هذا الرجل قد أرسله ليقدم التحية لهمفري وليخبره بالأوضاع الموجودة في الجيش المعادي ، وذكر أن نور الدين كان يعتزم العودة مع جيشه إلى منطقته في تلك الليلة ذاتها حيث نفدت جميع المؤن في معسكره ، ولم يعد بإمكانه مطاردة المسيحيين إلى مسافة أبعد من ذلك ، ثم عاد الرسول إلى شعبه وعاد الحاكم إلى المعسكر ، ونقل النبأ الذي كان قد تلقاه إلى الملك ، وبما أن الليل كان قريبا فقد خيم الحشد بأسره في مكان يدعى جوها ولم يكن هنالك المزيد من المتاعب ، ووجه الملك الناس خلال الأيام القادمة عبر غابة اسمها مريم إلى مناطق كانت واقعة تحت سلطة المسيحيين ، ثم عاد إلى أنطاكية .

أدرك نور الدين الآن أن منطقة الكونت تركت بدون مساعدة اللاتينيين ، ولذلك بدأ يضايقها بعنف ، مستفيدا من السمات اللاحربية للأغريق الذين وضعت المنطقة تحت رعايتهم ، ووجد

الاغريق أنفسهم غير قادرين على تحمل هجماته المتكررة ، وأرسل أخيرا قواتا ضخمة وحاصر الحصون وطرد الاغريق بالقوة وهكذا استولى في غضون عام واحد على المنطقة بأسرها (٥٥) .

وهكذا سقط بسبب اثمنا تلك الاقليم الغني للغاية المملوء بالجداول والغابات والمراعي ، ونو التربة المعطاءه لجميع أنواع المنتجات ، وكان مكانا قادرا على تقسيم دعم كاف لخمسمائة فارس ، وانتقل إلى أيدي العدو وهو بعيد حتى الوقت الحالي عن سلطتنا .

وعانت كنيسة أنطاكية من خسارة ثلاث رئاسة أسقفيات في تلك الاقليم ، ومن موجودات في الرها ومنبج والرصافة ، وما تزال هذه الكنائس محتجزة على الرغم من إرانتها من قبل الكفرة وتعيش في ظل شؤون الأمم .

١٨ - الملك ينصح الأميرة بالزواج بواحد من الأمراء ليحكم مملكتها ، لكن نصيحته لم تلق الأذن الصاغية . الملك يمضي من هناك إلى طرابلس في طريقه إلى وطنه .

كان قلق بلدوين ملك القدس كبيرا في هذا الوقت حول أنطاكية والمناطق المتاخمة لها ، وكان يخشى أن تقع في يد العدو وتعاني من المصير المؤلم الذي عانت منه الرها كما ذكرنا ذلك أنفا ، لاسيما وأنها كانت محرومة من حماية أميرها ، وكان هذا سيسبب المزيد من المتاعب ويحدث خسارة لاحتمل للشعب المسيحي ، ولم يكن الملك نفسه حرا للبقاء لفترة طويلة في أنطاكية حيث تطلبت مسؤوليات مملكته بعبوته إليها ، ولذلك نصح الأميرة بشكل متكرر لاختيار